



الهجرة في فلك التاريخ

للأستاذ/ السيد حسن قرون

رئيس التحرير
الدكتور/ على أحمد الخطيب

هدية مجلة الأزهر المجانية - المحرم ١٤١٣ هـ

الأزهر

الهجرة في فلك التاريخ

للأستاذ/ السيد حسن قرون

رئيس التحرير
الدكتور/ على أحمد الخطيب

هدية مجلة الأزهر المجانية ـ المحرم ١٤١٣ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله قدر فهدى ، وأمات وأحيا ، وإليه المصير ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبى الأمين ، جعل الله وفاته ـ عليه الصلاة والسلام ـ عزاء لكل مسلم تنزل بساحته مصيبة الموت.

وكاتب هذه الرسالة فضيلة الأستاذ « السيد حسن قُرُون » عرفته مجلة الأزهر ، وصحف مصر ، والأقطار العربية كاتباً ناقداً باحثاً عاش أكثر من جيل عرف أعلامًا وعرفته أعلام ، فكان نعم الكاتب الناقد الباحث الذى يضع الأمور فى مقاديرها ، ويحقق ويدقق ويرد الحق إلى نصابه فى التاريخ والأدب وحوادث الحياة .

كان الفقيد الكريم الذى وافاه القدر صباح ٦ من ذى الحجة ١٤١٢ هـ ٧/٦/١٩٩٢ ملازمًا للقلم ملازمة الظل صاحبه ، وكان قلمًا قديرًا على بسط أفكار صاحبه ، تلك الأفكار المصونة عن الإسفاف والملق ، الغنية بالفكر العالِم ، والهدف النظيف .

إنه قلم ترك مكانًا صعبًا مرتقاه ؛ لأنه مكان عالِمٍ مثابر لا يعرف التسلق ولا الوثوب ، وما إليهما من بضاعة مزجاة غمرت السوق بزيف وانحطاط .

وهذه كلمة طيبة كتبها الفقيد ـ رحمه الله ـ فى « الهجرة » تقدمها مجلة الأزهر تعريفًا بنبذة فى تاريخ الهجرة ، وإحياء لذكرى هذا الكاتب الجليل الذى اختص مجلة الأزهر بخير بحوثه وأنفعها علمًا وخدمة للإسلام والمسلمين .

« د . على أحمد الخطيب »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ . سورة الأنفال

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

سورة التوبة

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾

سورة الاسراء

مكة بين التوحيد والوثنية

كانت مكة نهاية رحلات خليل الرحمن أبى الأنبياء إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقد رحل مع قبيلته من شمال اليمن إلى (أور) جنوب العراق ، ثم رحل إلى شماله بعد ثورته على الأصنام ، ونجاته من الحريق ، ثم اتجه إلى سورية وفلسطين ومصر وفى كل موطن تصادفه حوادث وعقبات فينجيه الله منها .

وفى مكة ترك وليداً هو ابنه إسماعيل فى رعاية أمه هاجرالمصرية ، ولما شب الوليد وصار رجلاً اشترك مع أبيه فى بناء الكعبة والدعاء . والقرآن الكريم يذكر ذلك ، فيقول الله تعالى :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾

سورة البقرة

والآيات الكريمة واضحة فى نسقها المبين تعطيك قيام إبراهيم وابنه إسماعيل ببناء الكعبة ، وتوضح لك مسلك البانيين من اخلاص النية فى العمل والدعاء أن يكون من ذريتهما أمة مسلمة موحدة ، وأن يكون لها رسول منها يتلو على بنيها الآيات ويعلمهم الحكمة . وقد طلبا التعرف على مناسك الحج ، فأراهما الله المناسك بصحبة جبريل ـ عليه السلام ـ ولذا كان رسول الله ـ ﷺ ـ وهو من ذرية إسماعيل بن إبراهيم يقول : أنا دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى أخى عيسى ، ذكر ذلك لأصحابه حين سألوه عن بدء أمره .

وكانت مكة غير آهلة بالسكان ، فكان لعمل إبراهيم ودعائه حين أمره الله أن يؤذن بالحج أثره فى سكناها ، وبعث الحياة فيها ، فكان أن سكنتها جرهم التى أصهر إليها إسماعيل ، وترك من بعده ذرية تعيش فى كنف تلك القبيلة ، وتوالت الأيام ، وكرت الأعوام ، وتغيرت الأحوال ، فزاحمت جرهم قبائل أخرى زحفت من الجنوب أشهرها خزاعة التى قدمت إلى الشمال بعد هدم سد مأرب ، واستولت على مكة ، وطردت القائمين بأمرها فى ذلك الحين .

وكان الناس بمكة قبل خزاعة يتمسكون بالدين الحنيف دين إبراهيم ـ إلى حد ما ـ فلما تولت خزاعة الأمر عمد ملكها (عمرو بن لحى) إلى تبديل عقائدها ؛ فأمر بعبادة الأصنام ،

وجلب من العراق الصنم (هبل) فجعله فى الكعبة على رأس الآلهة ، والناس على دين ملوكهم .

أما أبناء إسماعيل فلم يصمدوا لهذه الغارات ــ لقلتهم يومئذ ــ فنزحوا من مكةمنهم من دنا ومنهم من نأى ، وحملوا معهم بعض الحجارة من الحرم تيمنا به ، وتذكاراً للوطن الحبيب ، فلما مضى دهر عليهم فشت فيهم عبادة الحجر ، فصاروا وثنيين . وعجيب أمر البشرية ، فمن المعقول أن تكون بعد وصايا الأنبياء أكثر تمسكاً بالتوحيد ، وأخلص عبادة للخالق الرازق المحيى المميت ، وأن يكون لها من الدين تشريع حميد فى السلوك والمعاملات ، وروحانية تحميها من البدع والخرافات ، وأنت تعلم حكاية قنديل أم هاشم وما جره على المسلمين فى العصور المتأخرة من أضرار ، وقد تنبه السلف الصالح فى صبح الإسلام لمثل ذلك ، فقد « روى عن سعيد ابن جبير أنه كان يكره أن يؤخذ من طيب الكعبة يستشفى به ، وكان إذا رأى الخادم تأخذ منه قفدها[1] قفده لا يألو أن يوجعها » . وأعود إلى عمرو بن لحى الخزاعى الذى كان قوله « دينا مطاعاً لا يخالف » فأذكر أنه تمادى فى عبثه ، والهجوم على تعاليم إبراهيم ــ عليه السلام ــ حتى إنه غير التلبية ، ولم تعد سيرتها الأولى إلا على يد

---

(١) صفع القفا ببطن كفه .

خاتم المرسلين ، وما أقره الإسلام من مناسك الحج هو من سنة إبراهيم وليس للجاهلية فيها نصيب . وانتهى أمر خزاعة بظهور رجل طموح هو قصى بن كلاب ، جد الرسول الرابع ، فقد استولى على مفتاح الكعبة بعد زواجه ببنت الملك الخزاعى ، ثم أجلى خزاعة من الحرم ، ثم جمع قريشاً من قبائل العرب وشعاب الجبال وأسكنها مكة ووضع لها النظم وأعلى من شأن الأصنام ، رووا عنه أنه سمى اثنين من أبنائه باسم أصنامه : عبد مناف ، وعبد العزى ، واثنين أحدهما باسم دار الندوة عبد الدار بن قصى والآخر باسمه : عبد قصى بن قصى ، وأغلب الظن أن بنى (فهر) لم يعرفوا باسم قريش إلا بعد أن جمعهم قصى ؛ فقريش من التقريش وهو التجميع . قال شاعر :

أبوكـــم قصى كـان يــدعى مجمعــا

بــه جمــع الله القبــائل من فهـــــر

قلنا هذا لنفرش فرشاً لما نقوله بعد ، حين يظهر الإسلام ليحطم الأصنام ، ولنلقى ضوءاً على نشأة عبادة الأصنام فى مكة وكيف صارت ديناً له سدنته وكهانه وأتباع يدافعون عنه ؟

هذه مكة وهذا دين قريش لا نستثنى إلا نفراً يعد على أصابع اليد الواحدة كانوا ينكرون عبادة الأوثان ، فيجدون استهزاء واضطهاداً يلجئهم إلى ترك مكة ، وكان الخارج على دين قريش تتولى أمره أسرته أو البطن الذى هو منه كما كانوا يقولون .

وإذا نظرنا إلى قريش خاصة والعرب عامة رأينا قريشاً تمتاز على غيرها بعد قصي وحفيده هاشم بأنها تحسن شئون التجارة ، وطريقة التعامل مع الناس ، وتستفيد بمكانة الكعبة مالاً وجاهاً ، وبصراً بجميل الكلام وصياغته . أما فى غير ذلك فكانت لا تقاوم القبائل فى شئون الحرب وقول الشعر ، كانت قريش تجمع فى ذلك الزمان بين التحضر والتبدى معاً ؛ تبعاً لحياتها التجارية ، وتبعاً للنظم التى وضعها قصى ، ومهما تكن فهى نظم لا تبلغ شأو الحضارة فى الدول المجاروة لها . أما العرب بعامة ـ ونحن الآن فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الميلاديين حين ولد محمد ـ ﷺ ـ ، فاستقبلته الكعبة وليداً ثم صبياً ثم شاباً ثم رسولاً نبياً ؛ فقد كانت فى حال من الفوضى السياسية والاجتماعية والفكرية يرثى لها ـ وان جمعت خصالاً حميدة كالكرم والشجاعة وحماية الجار ـ فلا بد لها من مصلح يبصرها ، ويهديها سبيل الرشاد ، ويدفع بها إلى مجال الحضارة وصنع التاريخ وشاعرها الجاهلى يقول :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم
ولا سراة إذا جهالهم سادوا

فماذا تقول فى أمة ليس لها قانون عام ينفذه حاكم مطاع ؟ وماذا تقول فى أمة انتقصت من أطرافها الخصبة بسياسة ذكية

مدبرة ، فقام على مشارف الشام ملك ألف سنة ليحمى الدم من غارات القبائل العربية المتاخمة ، وقام على الحيرة ملك اللخميين ليحمى الفرس من غارات القبائل العربية أيضاً ، وكان هؤلاء وهؤلاء ظلمة لا يرحمون ، ولا يعرف العدل إلى قلوبهم سبيلاً ، وما ظنك بملك جعل له يوماً للبؤس يعدم فيه من يلاقيه ، ويوماً للنعيم يجزل فيه العطاء لمن حظى به ، وفى الحالين هو ظالم ، لأنه يصدر فى كل منهما عن هوس وبعد عن مسلك الملوك ، ومع ذلك فهو مع سادته من الفرس خاضع ذليل .

وفى جنوب جزيرة العرب كان ملك وحضارة، ضاعا باتباع سياسة الجور والاهمال حينا ، والتعصب الدينى حينا آخر حتى كان آخر الأمر استعمار الحبشة لليمن ، ثم حل محله استعمار الفرس ؛ فحين أراد سيف بن ذى يزن أن ينهض بملك آبائه الحميريين استعان بالفرس ، فهو فى نظر العرف المعاصر عميل للاستعمار ، مهما لقى من معاصريه[1] من المدح والتبجيل .

أما سكان البادية ، فكانوا فى حياة مظلمة قاسية ، مليئة بالنهب والسلب والغارة وخطف النساء ، وكانت المعارك الطاحنة تنشب فى سبيل الماء والكلأ ، وكانت المعارك تطغى عليهم طغياناً كبيراً ، فانك تستطيع أن تشترى ألسنتهم وقلوبهم

(١) ممن مدحه عبد المطلب بن هاشم وأمية بن أبى الصلت الشاعر .

معاً بالتلويح بالطعام أو الكساء . وكتب الأدب تحكى كثيراً عن هذه الماديات تطرف بها القراء ، وقد تكون نظرتهم مخالفة لنظرتنا اليوم ، فهم يذكرونها على أنها تبين منزلة الشاعر أو التكسب بالشعر ، ولكنها فى الوقت نفسه تدل على نفوس مريضة فى حاجة إلى علاج ، الطعام دينها المفضل ، والنهب ذريعتها إلى الحياة ، وقصة المحلق أو أى شاعر غيره تصور هذه المادية كل التصوير .

أجدب المحلق الكلابى : كان رجلاً كثير البنات لم يتقدم أحد للزواج منهن ، فأشارت عليه عمته ـ وكانت حصيفة ـ أن يتعرض للأعشى الشاعر وقد نزل قريباً منهم وهو شاعر يرفع ويخفض بشعره . قالت له : انظر ما أقول لك ، واحتل فى زق من خمر ، وأرسل إليه بهذه الناقة والزق وببردى أبيك ، فوالله لئن اعتلج الكبد والسنام والخمر فى جوفه ، ونظر إلى برديه عليه ليقولن فيك شعراً يرفعك به . ففعل ، فمدحه الأعشى بقصيدة تعد من عيون شعر المدح ، منها :

أبا مسمع سار الذى قد فعلتمو
فأنجد أقوام به ثم أعرقوا
وان عتاق العيس[1] سوف يزوركم
ثناء على أعجاز من معلق

(١) النوق البيض .

تــــرى الجـــود يجـــرى ظاهـراً فوق وجهـه

كمـــــا زان متـــن الهنـــدوانى رونـــــق

مدحه بشعر بلغ نجدا والعراق ، وان الناس سيزوورونه لكرمه ، ويغنون بشعر الشاعر وراء النوق ، والكرم ظاهر فوق وجهه يهش للزائر ، وتأخذه الأريحية للعانى المؤمل ، ومن الطريف أنه جعل ثناءه معلقاً على أعجاز للعيس ، ولأنه يحدى به .

قال الرواة : فسار ذكره ، وحسنت حاله ، وتزوجت بناته كل واحدة على مائة ناقة .

وأهل مكة ـ حتى عصر قصى ـ كانوا يعيشون فى فقر مدقع ، وحياة متجهمة كجبال مكة لا تعرف نبت الزرع ولا تمايل الشجر حتى كان (عمرو بن عبد مناف) المشهور بهاشم وهو جد رسول الله الثانى الذى سنَّ لقريش الايلاف . قالوا : كان عمرو بن مناف سيداً فى زمانه ، وله ابن يقال له (أسد)[1] . وكان له ترب من بنى مخزوم يحبه ويلعب معه . فقال له : غداً نعتفر ـ وكان من عادة قريش إذا أصابت أحداً منهم مخمصة جرى هو وعياله إلى موضع معروف فضربوا على أنفسهم خباء حتى يموتوا ـ فلما سمع أسد قوله دخل على أمه

---

(١) جد على بن أبى طالب لأمه .

يبكى وذكر لها ما قاله تربه ، فأرسلت إلى أولئك بشحم ودقيق فعاشوا ، ثم ان هذا الترب رجع إلى أسد مرة أخرى . فقال له : غداً نعتفر فدخل أسد على أبيه يبكى ، وخبره خبر تربه وما جرى لأهله ، فاشتد ذلك على عمرو بن عبد مناف ، فقام خطيباً فى قريش ــ وكانوا يطيعون أمره ــ فقال : انكم أحدثتم حدثاً تقلون فيه وتكثر العرب ، وتذلون وتعز العرب ، وأنتم أهل حرم الله ، وأشرف ولد آدم ، والناس لكم تبع ، ويكاد الاعتفار يقضى عليكم . فقالوا : نحن لك تبع . قال : ابدءوا بهذا الرجل ــ يعنى أبا الفتى المخزومى ــ فأغنوه عن الاعتفار . ففعلوا . قال الرواة : ان عمرا نحر البدن ، وذبح الكباش والمعز ، ثم هشم الثريد ، فسمى هاشما ، وفيه قال الشاعر :

عمـــرو العـــلا هشـــم الثريـــد لقومـــه
ورجـــال مكـــة مســـنتون عجـــاف

ثم جمع كل بنى أب على رحلتين : فى الشتاء إلى اليمن ، وفى الصيف إلى الشام للتجارات ، فما يربح الغنى قسمه بينه وبين الفقير حتى صار فقيرهم كغنيهم ، فجاء الإسلام وهم على هذا ، فلم يكن فى العرب بنو أب أكثر مالاً ، ولا أعز من قريش ، وحسبنا أننا نقرأ من سور القرآن سورة قريش ، وفيها يمن الله على قريش بايلافها ورحلتيها ، ويأمرها بعبادته لأنه أطعمهم من جوع

وآمنهم من خوف ، ونص السورة : ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝ ﴾ سُورَةُ قُرَيْشٍ ،

ويجمع المفسرون والمؤرخون على ان اصحاب الايلاف أربعة إخوة عقدوا معاهدات لتأمين طرق التجارة ، بدأها هاشم ؛ فقد أخذ من قيصر الروم كتاباً فيه الأمان لمن يقدم الشام من تجار قريش ، فجعل كلما مر بحى من العرب بطريق الشام أخذ من أشرافهم ايلافا على أن قريشاً تحمل إليهم بضائع يكفونهم مئونتها ، ويؤدون إليهم رءوس أموالهم وربحهم إلى أن قدم مكة فأتى قومه بأعظم شيء أتوا به بركة وفعل مثل فعله اخوته ، فكان عبد شمس يؤلف إلى الحبشة ، والمطلب إلى اليمن ، ونوفل إلى فارس ، ولذلك سموا المجيرين ، فكان تجار قريش يختلفون إلى كل تلك الجهات بمعاهدات هؤلاء الإخوة ، فلا يتعرض لهم أحد ، واغتنموا فرصة الحرب الدائرة بين الفرس والروم ، فمارسوا التجارة العالمية. ، فقصى جمع قريشاً حول الحرم ووحدهم ، وحفيده هاشم سن لهم الرحلتين ، وكان لحفر بئر زمزم أثره فى رضا قريش عن حياتها التى تحياها .

فى هذه البيئة ، وبين تلك القبيلة صاحبة الأمر والنهى فى شئون التجارة والدين والاعتزاز بالمجد إلى أقصى حد « أهل حرم الله وأشرف ولد آدم » كما يقول هاشم أوحى إلى محمد بن عبد الله القرشى الهاشمى برسالة هى خاتمة الرسالات السماوية .

الرسالة والرسول

كل ما فى الكون يقول لمحمد الأمين ـ وهو يتجه إلى غار حراء أو يعود منه فى السابع عشر من رمضان ـ أنت رسول الله ، وجبريل يناديه ـ مجنح فى السماء : يا محمد أنت رسول الله ، وهو كالمأخوذ لما يرى ويسمع ، ويخاف أن يكون كاهناً أو شاعراً ، وهى أبغض الأشياء إليه ، ويجول فى نفسه أول قرآن سمعه : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾ (سورة العلق ـ آية : ١) فيخفق قلبه ، ويثقل خطوه حتى يبلغ خديجة التى تسأل عنه بعد غيبة عنها فى الغار ، ويلقى بكل ثقله إليها ، فتطمئنه ذاكرة له أخلاقه التى تميز بها دون فتيان قريش وذوى السن فيها ، وترجو له أن يكون نبى هذه الأمة ، وتنطلق إلى ابن عمها ورقة بن نوفل الذى قرأ التوراة والأنجيل فتخبره خبر زوجها الحبيب ، فيقول لها لئن كنت صادقة ان زوجك لنبى ، ويلتقى محمد بورقة وهو يطوف بالبيت ، فيسأل رسول الله ـ ﷺ ـ عن خبره ، فيخبره الرسول ، فيعلن ورقة مؤكداً مقسماً انك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء إلى موسى ... » فتطمئن نفسه أكثر ، ويأتيه الوحى آمراً :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ ﴾ (سورة المدثر ـ

ويعلمه الوضوء والصلاة .

ها هو ذا خاتم الأنبياء والمرسلين يستقبل حياة لا تعرف الراحة ، فعليه اصلاح نفسه واصلاح غيره ، ودعا سراً ثلاث سنوات متواليات ، آمن له قلة من قريش يؤدون معه الصلاة ويودون نشر ذلك الدين الحنيف ، وقريش فى أثناء ذلك لاهية راضية بمعيشتها الميسرةِ ، وأنديتها الموفرة ، وملاهيها المنتشرة ، وبتجارتها الرابحة ، ويقض مضجعها أن تفكر فى حياة الفقر والاعتفار .

ولا يمكن لرسالة عظمى لاصلاح البشرية أن تقف عند الدعوة السرية ، بل لا بد أن تنتقل إلى طور جديد أكثر ايجابية ، والله الذى قدر كل شيء قدره قد أراد لها أن تتحول من طور إلى طور إلى أن تبلغ كمالها وتمامها . فأوحى إلى رسوله

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

واستجاب لأمر الله ، وانطلق ينفذ ذلك الانذار ، ويعلن — فى أول خطبة — ذلك على ملأ قريش ، ولم تستجب قريش لداعى الله ، حتى عمه ، نبا عنه وتجهم له ، ورده بكلام مرذول ، سجله التنزيل فى سورة من سوره المكية .

ولا بد لصاحب الرسالة أن يبين عقيدته : الايمان بالله

وحده ، وترك عبادة الأصنام ، ولا بد أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويسلك بهم سبل الرشاد ، حتى تلين القلوب القاسية ، وتتغلب الروح على المادة ، فيتعاطف الناس ، وترتفع راية الحق والعدل ، وتزول الكبرياء من الأرض ، فلا سادة ولا عبيد ، بل الناس سواسية كأسنان المشط ، ولم يأت بذلك دون سند أو دليل ، فله من الله العماد ، ومن القرآن المعجزة الخالدة ، ولكن قريشاً تعرض عن كل ذلك اعراضاً شديداً ، وتدخل معه فى جدال عقيم .

ومع أن دعوته واضحة ، وأدلته ساطعة ، وبراهينه دامغة كانوا لا ينتهون منها إلا إلى سخرية منه وعناد له ، وركون إلى ما ألفوه من عبادة آلهتهم إلا قليلاً ممن هدى الله ، وتفتحت قلوبهم وعقولهم لهذا النور والذكر الحميد .

ماذا يخافون ؟ يقول العاقد فى « عبقرية الصديق » : « كان الثائرون فى وجه الدعوة المحمدية من مشركى قريش بين رجل من ثلاثة لا يعدوهم إلى رابع : رجل صاحب سيادة تتصل سيادته ببقاء الأمور على ما هى عليه ، ورجل من الأذناب الذين لا يعقلون ولا يحسون الظلم والفساد ، ولا يفعلون إلا ما يأمرهم به السادة المسيطرون ، ورجل لم يصغ إلى الدعوة الجديدة حق الاصغاء ولم يتسع له الوقت للتفرقة بينها وبين العرف القديم . وما عدا هؤلاء جميعاً فهو قريب من الدعوة المحمدية ... » .

وفى القرآن الكريم سور وآيات تبين موقف هؤلاء الثائرين على العقيدة النقية ، ومدى تعنتهم وتجافيهم عن الحق ورؤية أسباب النجاة . اقرأ أى سورة من السور المكية تر طوائف من المنطق المعجز ، والقصص الواعظ ، تر طوائف من المنطق المعجز ، والقصص الواعظ وتر فيها ضلال هؤلاء الثائرين . تعال معى ننظر فى « سورة الفرقان » لنرى كيف كانوا يسمعون ؟ وكيف كانوا يردون ؟ وتبدأ السورة بتعظيم الله وبيان فضله بانزال القرآن الذى يفرق بين الحق والباطل على عبده محمد .

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣ ﴾

(سورة الفرقان ـ ١ : ٣) وواضح من الآيات أن خالق هذا الكون وحده لا شريك معه ، ولا ينبغى أن يكون له ولد ، وكل شىء خلقه بتقدير وحساب ، وعلى هذا فعبادة الأصنام المخلوقة ـ التى لا تملك النفع والضر ، ولا الموت ولا الحياة ، ولا البعث ـ ضلال وبعدٌ عن الصراط المستقيم ، فماذا قالوا فى شأن الرسول ؟ تقول السورة : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤ ﴾

﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥﴾ (الفرقان ـ) وهذا الذى تقولوه ما كان لهم أن يذيعوه ، أو يحدثوا أنفسهم به ، فمحمد الأمين لم يعهد عنه أنه جالس أحداً من علماء الأديان فى زمانه ، ولم يكن يقرأ أو يكتب ، وما جاء بعيد كل البعد عن حكايات الأقدمين المتخيلة ، فهو إذا ذكر قصصاً ، فانما يذكرها للعظة والاعتبار ، لا للامتاع والامتيار ، انما هو العناد والضلال ، وسوء العاقبة ، والله يفحمهم برده بأنه هو الذى أنزل القرآن ، وهو العالم بكل شيء ، وما يذكره لم يكن لمحمد أن يعرفه قبل أن ينزل عليه ، وما نزل عليه يدعو إلى النظر والتفكير ، ثم الاقتناع ، ولكنهم يهملون ذلك وينتقلون ـ كما تقول السورة ـ إلى عناد آخر : لم لا يكون الداعى ملكاً ، وإذا لم يكن ملكاً فلم لا يكون معه ملك ينذر ، ويتدرجون : لم لا يلقى إليه كنزاً أو تكون له جنة يأكل منها حتى لا يضطر إلى التجارة وطلب الرزق ؟ ثم أخيراً :

﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا﴾

(**الفرقان** : ٨) ويرد الله عليهم مبصراً رسوله ، لو شاء لجعل له جنات وقصوراً ، ويطمئنه بأنه لا غرابة فى قولهم ؛ لأنهم لا يؤمنون بالآخرة والعقاب والثواب ، ولا مناص من عذابهم :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾

سورة الفرقان

وتمضى السورة مبينة أن الناس وما يعبدون من دون الله سيسألون ويجيبون ، ومبينة أن الرسل قبل محمد كانوا أناساً مثله ، ولم يكونوا ملائكة ، ومبينة نعيم المؤمنين فى الآخرة وعذاب الكافرين فيها ... وتحكى قصة عقبة بن أبى معيط الذى دعا الرسول إلى طعام ، فأبى أن يأكل حتى ينطق بالشهادتين ، ففعل . فقال له صديقه (أبى بن خلف) : وجهى من وجهك حرام إلا أن ترجع ، فارتد . قال تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ سورة الفرقان

﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ سورة الرعد

كانت له مندوحة أن يسلم ويحسن إسلامه ، ولكنه أرضى صديقه ، وأغضب ربه ، ولنا منها عبرة البعد عن أصدقاء السوء فانهم لا يهتدون ولا يهدون ، وعلى الإنسان أن يتأمل ما يلقى إليه من

الأخلاء ، فان كان فيه خير سمع وإلا فالبعد عنهم غنيمة . ويحز في قلب الرسول اعراضهم عنه ، وتوليهم عن سماع القرآن وتفهمه ، وكان الرسول ـ ﷺ ـ حريصاً على ايمان قومه ، واحيائهم بدينه ، والقرآن يصور ذلك فى أكثر من آية مثل :

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ سُورَةُ الشُّعَرَاءِ . ومثل ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾
سورة الكهف

وسورة الفرقان هذه تقول : ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ واعترضوا على نزول القرآن منجماً ، والله قد جعله كذلك ليكون على حسب الوقائع ؛ وليثبت به فؤاده ولا يتعب فى حفظه ، وهذا لا يضير فى الاعجاز ، فقد دعاهم إلى أن يأتوا بسورة مثله فعجزوا ، فلا داعى لهذا الاعتراض ، وزادوا فى السفه إلى حد :

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾ الفرقان : (٤١) استهزاء منهم ، وحسداً من عند أنفسهم ، ويصدمهم القرآن صدمة عنيفة رادعة بقوله : ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ

أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ (الفرقان ٤٣ ، ٤٤) وهنا يسوق الله الأدلة على قدرته من مد الظل وقبضه ، وخلق الليل والنهار لراحة ومعاش خلقه ، وارسال الرياح والمطر ليحيا النبات والحيوان والإنسان . ثم يعود إلى ذكر القرآن وبيان أثره فى النفوس ، وواجب الانذار به ؛ فيقول : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ (الفرقان ٥٠ : ٥٢) وقد كان سلاحه معهم ثلاثة عشر عاماً يبشر وينذر ويدلهم على عظاته وتوجيهاته ؛ لينظروا نعم الله ويهتدوا ، فعليه أن ينذر ، ولو شاء الله لأكثر من الرسل ، ليكون فى كل قرية نذير ، لكن الله شاء له أن يقوم مقام الرسل جميعاً ، فجمع له فضائلهم بالرسالة إلى كافة العالمين ، فقصر الدعوة إليه ، وعظمه بها ، فيكون وحده كجميعهم ، فليجدهاهم بالقرآن جهاداً كبيراً يناسب تلك المكرمات .

وتنتقل السورة إلى الذين آمنوا فصاروا عباده ﴿ عباد الرحمن ﴾ فتصفهم وصفاً جميلاً فيه سلوكهم من عبادة ودعاء ، وبعد عن المحرمات وترفع عن السفهاء ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ (الفرقان ـ ٦٣) ولست مع الذين قالوا بنسخ هذا ؛ لأن المؤمن من سماته الرحمة وحسن السمت

والوقار ، فإذا جد الجد ودعا داعى الجهاد كانوا أو أسوداً
والشاعر العربى يقول :

أحلامنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جنا إذا ما نجهل

ويبين الله منزلتهم الرفيعة فى الجنة لامتثالهم أوامره واجتنابهم نواهيه فى عبارة موجزة﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۝٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ ويختم السورة بانذار الكافرين ، والتهوين من شأنهم تأكيداً لما بدأ به أولها ، ومبيناً سبب غضبه عليهم قائلاً : ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا﴾ فالله لا يبالى بهم . وماذا يصنع بتعذيبهم لولا دعاؤهم معه آلهة من دونه ، واعراضهم عن داعى الحق ؟ لقد كذبوا فحق عليهم العذاب الدائم اللازم .

وتتابع الوحى بالنكير والنذير ، ورأوا حياتهم تتعرض للخسران إذا انتشرت الدعوة وصار لها أنصار وأتباع ، لا بد من الصد عنها ، وشن الحرب على معتنقيها ، وهموا بايذاء صاحب الرسالة ولكنهم خافوا قومه ـ بنى عبد مناف ـ ورأوا أبا طالب قد حدب عليه ، وقام دونه ، وماذا عليهم لو ذهبوا إلى أبى طالب ، لعله يعينهم على ما هم فيه من تعب وعناء .

قال الرواة : « لما رأت قريش ظهور الإسلام وجلوس المسلمين حول الكعبة سقط فى أيديهم ، فمشوا إلى أبى طالب حتى دخلوا عليه . فقالوا : أنت سيدنا وأفضلنا فى أنفسنا ، وقد رأيت الذى فعل هؤلاء السفهاء مع ابن أخيك من تركهم آلهتنا ، وطعنهم علينا وتسفيههم أحلامنا ، وجاءوا بعمارة بن الوليد بن المغيرة ، فقالوا : قد جئناكِ بفتى قريش جمالاً ونسباً ونهادة وشعراً ندفعه إليك فيكون لك نصره وميراثه ، وتدفع إلينا ابن أخيك فنقتله ؛ فان ذلك أجمع للعشيرة ، وأفضل فى عواقب الأمور مغبة » .

واختيار قريش لعمارة جاء وفق الشروط ، فمحمد الرسول ــ ﷺ ــ له وضاءته وجماله ونسبه وقرآنه يساوى تماماً ما جاء فى وصف من اختارت قريش فى زعمها ، قال أبو طالب : والله ما أنصفتمونى . أتعطوننى ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابن أخى تقتلونه ؟ ما هذا بالنصف ، تَسُومُنَّنى سوم العزيز الذليلَ . وفشلت خطتهم فى القتل ، وهو أول تفكير فيه ، قالوا : فأرسل إليه نعطه النصف ، ونفذ أبو طالب ما أرادوا ، فلماء جاء رسول الله ــ ﷺ ــ . قال أبو طالب : يا ابن أخى هؤلاء عمومتك وأشراف قومك ، وقد أرادوا ينصفونك . قال الرسول ــ ﷺ ــ : قولوا أسمع ، قالوا : تدعنا وآلهتنا ، وندعك والهك ، قال عمه : أنصفك القوم ، فاقبل منهم ، قال :

الرسول : أرأيتم ان أعطيتكم هذه ، هل أنتم معطى كلمة ان أنتم تكلمتم بها ملكتم بها العرب ، ودانت لكم بها العجم ؟ قال أبو جهل بن هشام : ان هذه لكلمة مربحة ، نعم . وأبيك لنقولنها وعشر أمثالها . قال : قولوا (لا إله إلا الله) فكانت صدمة أفقدتهم اتزانهم ، فخرجوا من المجلس مهرولين يقولون : اصبروا على آلتهكم ان هذا لشىء يراد ، ويسجل عليهم مقالهم هذا نعياً على عقولهم المغلقة على دياجى الوثنية ، قال تعالى :

﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦

سورة ص

وفكر أبو طالب فى موقفهم وحديثهم عن قتله ، فخاف أن يغتالوه ، فلما كان المساء فقد رسول الله ـ ﷺ ـ ، فأسرع أبو طالب إلى منزله فلم يجده وسرعان ما جمع فتيان بنى هاشم وبنى المطلب ابن عبد مناف وأمرهم بحمل السلاح ، ومتابعته إلى المسجد ، وأمر كلاً منهم أن يقف علي رأس عظيم من

عظمائهم ولا سيما أبو جهل ، « فانه لم يغب[1] عن شر إن كان محمد قد قتل » وهم على هذه الحال أتى زيد بن حارثة . فقال له أبو طالب : يا زيد ، هل رأيت ابن أخى قال : نعم كنت معه آنفاً . فقال أبو طالب : لا أدخل بيتى أبداً حتى أراه ، وأسرع زيد إلى رسول الله ـ فقص عليه الخبر ، فجاء الرسول ـ ﷺ ـ إلى أبى طالب فحادثه واطمأن وهدأ . فلما غدا على النبى فأخذه بيده ، فوقف به على أندية قريش ، ومعه فتيانه الذين كانوا معه أمس . فقال : يا معشر قريش ، هل تدرون ما هممت به ؟ قالوا : لا . فأعلن إليهم ما أراد ، وأمر الفتيان ان يكشفوا سلاحهم ، وصاح : والله لو قتلتموه ما أبقيت منكم أحداً حتى نتفانى نحن وأنتم ، فانكسر القوم ، وكان أشدهم انكساراً العدو اللدود أبو جهل .

وهكذا وصلت عداوة قريش لمحمد إلى حد القتل أو الاغتيال ، وهو بضاعة النوكى والمجرمين . هل سكتت قريش بعد هذا ؟ لقد اتجهت إلى شيء آخر لا يقل نكراً ولا شراً ، عمدت إلى تعذيب أصحابه متفننة فيه من سجن وارهاب ، ومنع للطعام ، كل بطن منها يتولى تعذيب بنيه أو رقيقه ، ولم يجد أصحابه مخرجاً من هذا الحرج إلا الهجرة إلى الحبشة مرة ومرة ،

---

(١) الطبقات الكبرى .

واشتدت قريش فى طغيانها ، واشتد الرسول فى انذارهم ، ويقرأ أصحابه القرآن فى مجالسهم ، فيزدادون جهلاً وسفهاً واعتداء ، وما يزال المؤمنون يسمعونهم ما يسوءهم ويسر المضطهدين ، فالجحيم للجاحدين ، والنعيم للمصدقين . يقول الله تعالى من « سورة الحاقة » :

﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ ﴾

وما من شك فى أن صورة الجنة ونعيمها لأهل اليمين جميلة ترتاح إليها النفوس ، وتخفق لها القلوب . أما صورة الجحيم لأهل الشمال فصاخبة عنيفة تفزع النفوس ، والجمل قصيرة كل منها جيش مغير ، تحس فيها حزم الوعيد ، وعزم التنفيذ يوم يتمنى الطاغية انه ما كان ولم يسأل عن أعمال . وفى سيرة النبى مصداق لأثر هذه الآيات وأمثالها فيمن يسمعها من كفار مكة ،

فلما سمع عتبة بن ربيعة من النبى ـ ﷺ ـ

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾

(ســورة فصلت) ارتـاح ، ورجـاه ألا يفعل .

وفكرت قريش فأطالت التفكير فى تلك الدعوة وصاحبها ، فقد رأتهاخطراً على وحدتها وثروتها ، ومـا دام بنـو هاشم وبنو االمطلب يمنعونه ويخلون له الطريق ، فلتتخذ موقفاً حاسماً معهم ، هنالك أجمع سادتها على مقاطعة بنى هاشم ، وكتبوا كتاباً ألا يناكحوهم ، ولا يبايعوهم ، ولا يخالطوهم ، وعلقوا الصحيفة فى جوف الكعبة ، كان ذلك فى ليلة هلال المحرم سنة سبع من مبعث رسول الله ـ ﷺ ـ ، وحصروا فى شعب أبى طالب ، وأظهر أبو لهب عمه تأييـده لصحيفـة قريش ، فقطعوا وسائل العيش ، فكانوا لا يخرجون من موسم إلا إلى موسم ، ولقوا فى سنوات المقاطعة أهوالاً وأهوالاً . هل فت ذلك فى عضد النبى ؟ هل لواه عما يسعى إليه من انقاذ البشرية من التردى ؟ فلو وضعوا الشمس فى يمينه والقمر فى يساره على أن يترك هذا الأمر ما تركه أو يهلك دونه ، عزيمة لا تعرفها قريش ولا الجزيرة العربية كلها ، لقد كان وحده مسلماً فأصبح له أتباع ، وكان ضالاً فهداه الله إلى الشريعة الغراء ، وانفرجت الأزمة حين أخبر عمه أن صحيفة قريش الظالمة أكلتها الأرضة ولم

يبق منها إلا (باسمك اللهم) . ويسمع نفر أخذتهم عاطفة النسب والقربى ، فيتوافقون على تمزيقها ، وقد فعلوا ، وخرج الرسول ـ ﷺ ـ وصحبه ؛ ليطوفوا بالكعبة وينتدوا فى ظلال الحرم .

عـــام الحـــزن

فى السنة العاشرة من مبعثه فقد رسول الله ـ ﷺ ـ أبا طالب وخديجة ، وكانا له درءاً ودرعاً ، فقد أبا طالب وبعده خديجة بشهر وخمسة أيام ؛ فأصابه من الأسى ما أصابه حتى سمى عام وفاتهما « عام الحزن » ، وان قلوبنا لتنفطر لكلمة « عام الحزن » ؛ لأنها تعطى حالة لرسول الله لا تحتملها القلوب المؤمنة ، والأكباد المرهقة ، ويفسر حزن الرسول ما لقيه بعد رحيلهما عنه ، فقد رأى مكة خواء كأنها خلت من كل أحد ، ولم تكن قريش كريمة معه ، ولم ترع فيجعته ، بل أظهرت تجهمها وغلظتها ، ونالت منه ما لم تكن تنال ولا تطمع فيه ، وبلغ ذلك عمه أبا لهب فجاءه ، ليريه أنه لا يقل عن أبى طالب حماية له ، وحفاظاً على منزلته ، فقال : يا محمد ، امض لما أردت ، وحلف باللات لا يوصل إليه حتى يموت ، فلما سب ابن الغيطلة النبى أقبل عليه أبو لهب فنال منه ، فولى وهو

يصبح : يا معشر قريش ، صبأ أبو عتبة ، وأحدثت صحيته ذعراً فى قريش ، فذهب سادتها إلى أبى لهب يسألونه عن أمره . فقال لهم : ما فارقت دين عبد المطلب ولكن أنصر ابن أخى فاطمأنوا ، ولكن عقبة بن أبى معيط وأبا جهل (قتلا فى يوم بدر) احتالا ؛ فردا أبا لهب عن نصرة ابن أخيه . قالا له : ان محمداً يزعم أن عبد المطلب فى النار ،ــ وكان الرجل أحمق ــ فرجع إلى النبى يسأله : أيدخل عبد المطلب النار ؟ قال ــ ﷺ ــ : نعم ، ومن مات مثل ما مات عليه عبد المطلب يدخل النار . قال أبو لهب : والله ما برحت لك عدواً ، وانضم إلى قريش يكيد لابن أخيه ، ويحول بينه وبين أداء رسالته . لم يداهن رسول الله عمه ، وما كان ليفعل ذلك وهو الذى لا ينطق عن الهوى ، وضاقت مكة على رحبها بسيدها وسيد ولد آدم ، ففكر فى أمره وأمرها ، ورأى أنها أرض غير صالحة لاظهار دعوته ، لا بد من مكان آخر لها فليكن الطائف ، وعزم على الخروج معه زيد بن حارثة مولاه وتبناه فى آخر شوال من عام الحزن ، فذهب إليها ، وأقام فيها عشرة أيام لم يدع أحداً من أشرافها إلا كلمه ، وعرض عليه نصرته ، وخافوا على شبانهم أن يتبعوه . فقالوا : يا محمد ، اخرج من بلدنا ، وألحق بمن يجيبك من الأرض ، وزادوا فى جفائهم ، فأغروا به سفاءهم وعبيدهم ، فجعلوا يرمونه بالحجارة حتى دميت قدماه ، وزيد ابن حارثة

يقيه بنفسه . أبت ثقيف أن تكون كريمة ، وجبنت مجاملة لقريش ، وَهَبْهُ يطلب جوارها ـ والجوار من عادات العرب ـ أفلا تفعل ذلك عزيزة ؟ وليس بعد الكفر ذنب ـ كما يقولون ـ ضلوا وذلوا حتى العبيد الذين جاء محمد لتحريرهم اشتركوا فى ايذائه ، وأنى لهم أن يفهموا ؟ .

فى ظل بستان لقرشيين هما عتبة وشيبة ابنا ربيعة جلس رسول الله ـ ﷺ ـ متألماً قائلاً : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى أو إلى عدو ملكته أمرى ؟ ان لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بى غضبك ، أو يحل علىّ سخطك . لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » فلما انتهى من شكاته ودعائه ومناجاته ٠ ں قوى النفس ، صلب العزيمة ، راضى الفؤاد منصرفاً إلى مكة ـ وهو كاره لها ـ حتى إذا كان بنخلة[1] قام من جوف الليل يصلى ، فمر به نفر من الجن فاستمعوا له ، فلما فرغ من صلاته ، ولوا إلى قومهم منذرين ، أسلموا وأجابوا ، وكان هذا اعزازاً لموقفه ، وتسلية له عن اعراض انس ثقيف .

---

(١) نخلة : مكان بقرب الطائف .

ها هو ذا يعود إلى مكة والعداوة قد بلغت منتهاها ، وليس له أبو طالب ولا خديجة ، وان أصحابه لقلة ، منهم من هاجر إلى الحبشة ، ومنهم من لا يزال تحت نقمة قريش ، انهم ان علموا بإخفاقه فى رحلته تجرءوا عليه ، وأفسدوا عليه حياته ، وحالوا بينه وبين ما يريد ، وجاءه الحل حين خطا أول خطوة بعد نخلة فقد مر به رجل من أهل مكة قدم نفسه إليه ، فطلب إليه النبى أن يقوم بأمر يريده ، فلبى الرجل طلبه ، وما جرى فى هذا الشأن لا بأس بايراده ؛ فهو يرينا الطبقية التى أشار إليها القرآن فى أكثر من آية فى وصفه تخاصم أهل النار ، والطبقية أيضاً فى قريش . قال محمد للرجل : أئت الأخنس بن شريق ـ حليف بنى زهرة ـ فقل له : يقول لك محمد . هل أنت مجيرى حتى أبلغ رسالة ربى ؟ فأتاه فبلغه تلك الرغبة . فقال الأخنس : ان الحليف لا يجير على الصريح . فرجع الرجل إلى النبى فأخبره ، فطلب إليه أن يعود إلى مكة مرة أخرى ، فأبدى الرجل استعداده . قال له : اذهب إلى سهيل بن عمرو ـ صاحب قريش فى صلح الحديبية فيما بعد ـ وحمله رغبته السابقة ، فبلغ الرجل سهيلا فقال له : ان محمداً يقول لك : هل أنت مجيرى حتى أبلغ رسالات ربى ؟ قال سهيل فى غير شعور بالنقص : ان بنى عامر بن لؤى لا تجير على بنى كعب بن لؤى ، فرجع إلى النبى فألقى إليه خبر سهيل . قال : تعود ؟ قال

الرجل : نعم ، قال ائت المطعم بن عدى (من بنى نوفل بن عبد مناف) ذهب الرجل إليه وأبلغه أن محمداً يطلب إليك أن تجيره حتى يبلغ رسالة ربه . قال المطعم : نعم ، فليدخل مكة ، فرجع الرجل وأخبره .

وأصبح المطعم بن عدى ـ فى اليوم الذى وصل فيه الرسول ـ قد لبس سلاحه هو وبنوه وبنو أخيه فدخلوا المسجد . فلما رآه أبو جهل . قال له : أمجير أم متابع ؟ قال المطعم : بل مجير . قال أبو جهل : قد أجرنا من أجرت ، فدخل الرسول مكة .

وفى اليوم التالى دخل الرسول المسجد والمشركون عند الكعبة فلما رآه أبو جهل ـ وكان رجلاً سيئاً حسوداً ـ قال : هذا نبيكم يا بنى عبد مناف ، فتصدى له عتبة بن ربيعة يصده . وما تنكر أن يكون منا نبى أو ملك ؟ وسمعها النبى فأتاهما ، وصب عليهما وعلى قريش الملام صبا . قال لعتبة : أما أنت يا عتبة ، فو الله ما حميت لله ولا لرسوله ، ولكنك حميت لأنفك . وأما أنت يا أبا جهل فو الله لا يأتى عليك غير كبير من الدهر حتى تضحك قليلاً وتبكى كثيراً ، وأما أنتم يا معشر الملأ من قريش فو الله لا يأتى عليكم غير كبير من الدهر حتى تدخلوا فيما تنكرون وأنتم كارهون . وانصرف ليحقق ما أنذر .

يثـــــرب

حين نقرأ السيرة النبوية يسبـق إلى ظننـا أن رسول الله ـ ﷺ ـ لم يتصل بيثرب إلا فى السنوات الثلاث التى تلت وفاة عمه وزوجه ، وان من يتأمل مجرى الحوادث يجد رسول الله ـ ﷺ ـ لم يأل جهداً فى البلاغ ودعوة القبائل العربية التى كانت تؤم مكة فى موسم الحج ولا شك أنه كان يدعو القبائل التى لها حلف لقريش أو قرابة فى النسب ، فالمفهوم وفاقاً لقوله

تعالى : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ أن يدعو قومه ثم قريشاً جميعاً ثم مضر ثم ربيعة ثم يتجه إلى قبائل اليمن ، ثم الناس أجمعين ، ومن أظهر ما رأينا انتقاله بالدعوة من مكة إلى الطائف ، وثقيف مضربة كما يعلن ذلك بنوها ، ولكن الله أراد لهذه الدعوة أن تظهر وتبهر وتقهر فى يثرب ، وقد بدأ الاتصال فردياً ثم فى جماعة قليلة ، ثم فى جماعات ، فقد روى الرواة أن رسول الله لقى (سويد بن صامت ، أحد بنى عمرو بن عوف) حين جاء حاجاً معتمراً فعرض عليه الإسلام ، فقال له سويد : لعل الذى معك مثل الذى معى . قال : وما معك ؟ قال : مجلة لقمان ـ يريد حكمة لقمان ـ قال الرسول : اعرضها علىّ ، فعرضها عليه . فقال :

ان هذا الكلام حسن ، معى أفضل منه ؛ قرآن أنزله الله علىّ هدى ونور ، وتلا عليه ما تيسر ، فأظهر ارتياحه لما سمع ، ثم انصرف عنه وقدم يثرب فلم يلبث أن قتلته الخزرج وهو مسلم[1] ، وكان قتله يوم (بعاث)[2] .

ويذكرون أن أنس بن رافع قدم مكة ليعقد حلفاً مع قريش لحرب الأوس ، فدعاه النبى إلى خير مما جاء من أجله ، فأبى .

أريد أن قول ان الدعوة الإسلامية لم تكن خافية على أهل يثرب ، ولكن حكمة الله اقتضت ـ أيضاً ـ أن تتأخر الدعوة إليهم حتى تفرض نفسها على الأسماع ، والأفئدة والعقول ؛ وحتى يؤمن من يؤمن على بينة ، فقد عجزت قريش أن تقوم لها بالبرهان ، وعمدت إلى امتشاق الحسام ، ويثرب فى واقع الأمر مهيأة لتلك الدعوة ، ومنذورة لها كما نقول اليوم ، ففى تاريخها أن (تبعا) ملك اليمن غزاها ، ولم يستطع فتحها فى أيام طويلة ، وحرب مضنية ، وكان أهلها يقرونه[3] مساء حين يتوقف القتال . قالوا : فخرج إليه جدان من اليهود أطلعاه على علمهما أن يثرب ستكون مهاجر نبى يخرج من مكة ، وأنك لا تدخلها ، فأمر تبع جيشه بالرحيل أخذاً بنصيحة الجدين .

وأقرب من هذا ما يذكرونه من أن ابنى قيلة (الأوس

---

(١) الطبرى جـ ٢ .   (٢) يوم للأوس على الخزرج .

(٣) يقدمون له الطعام .

والخزرج) كان يسكن معهم اليهود فى يثرب ، وكانت تقوم بين الفريقين عداوات وحروب ، فكان اليهود يقولون لهم : ان نبياً الآن مبعوث قد أظل زمانه نتبعه ونقتلكم قتل عاد وإرم ، فلما التقى رسول الله ـ ﷺ ـ بالرهط من بنى الخزرج ـ وكانوا ستة على أشهر الأقوال ـ فى موسم الحج . قال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج . قال : أمن موالى يهود ؟ قالوا : نعم . قال : أفلا تجلسون حتى أكلمكم ؟ قالوا : بلى . فدعاهم إلى الله ـ عز وجل ـ وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا منه ، وأخذوا عنه قال بعضهم لبعض : تعلمن والله انه النبى الذى توعدكم به يهود ، فلا يسبقنكم إليه . فأجابوه إلى ما دعا إليه ، وصدقوه ، وقبلوا الإسلام لهم ديناً ، وأخبروه بالعداوة التى بين قومهم « وعسى الله أن يجمعهم بك ، وستدعوهم إلى الذى أجبناك إليه ، فان يجمعهم الله عليه فلا أحد أعز منك » ولم يبخل التاريخ عليهم ، فذكر أسماءهم وهم (١) أسعد بن زرارة (٢) وعوف بن الحارث « ابن عفراء » (٣) ورافع بن مالك (٤) وقطبة بن عامر (٥) وعقبة بن عامر بن نابى (٦) وجابر بن عبد الله بن رئاب . فلما قدموا يثرب على قومهم ذكروا لهم رسول الله ـ ﷺ ـ ، ودعوهم إلى الإسلام ، فأقبلوا عليه حتى فشا بينهم ، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر لصاحب الرسالة .

ودار الزمان دورته ، وإذا نحن مع اثنى عشر رجلاً من يثرب بعد عام ، عشرة من الخزرج واثنين من الأوس ، منهم من التقى به من العام الماضى ، ومنهم من يلقاه لأول مرة ، والأوسيان أحدهما حليف وهو أبو الهيثم بن التيهان من (بَلِىّ) والآخر عويم ابن ساعدة ، أسلموا ، وبايعوه ـ وهى بيعة العقبة الأولى ويسمونها (بيعة النساء) ـ « على ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف » قال الرسول لهم : « فان وفيتم فلكم الجنة » ولم يكن من بنودها القتال ، ورجعوا إلى يثرب يملأ قلوبهم الايمان ، فرحين بما آتاهم الله من هداية ، فكانوا يجتمعون ويتذاكرون أمر رسول الله وهدايتهم به ، وكتبت الأوس والخزرج إلى رسول الله ـ ﷺ ـ أن ابعث إلينا رجلاً مقرئاً يقرئنا القرآن فبعث إليهم صحابياً صدق ايمانه وحسن بيانه (مصعب بن عمير) أول سفير فى الإسلام ، أدى مهمته ، وأرضى الله ورسوله ، وأسلم على يديه كثير ، وجم غفير ، وممن أسلم على يديه سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير سيد الأوس ، وبذلك انتشر الإسلام انتشاراً عظيماً ، ولم يبق من بيوت الأنصار غير مسلم إلا بنى أوس بن حارثة وقف بهم عن الإسلام شاعرهم أبو قيس بن الأسلت . وهكذا انتقلت الدعوة إلى أرض يجود فيها النبات ويترعرع .

الإســـــراء

كانت يثرب (المدينة) تنعم بالحياة الروحية ، وتعلو على مطالب الجسد ، ويشع فيها نور الإسلام على حين كانت مكة على عهدنا بها تنادى بالويل والثبور ، وعظائم الأمور ، وتتحدث عن الذين آمنوا بأنهم يقوضون موروثاتها ، ومجد آبائها ، ويضرمون وحدتها ، وما علموا أن وحدتها ليست بشيء بجانب الوحدة الشاملة التى يدعو إليها النبى الكريم ، وحدة تشمل العرب جميعاً ؛ ليكونوا خير أمة أخرجت للناس ، لقد أنذرهم بعد عودته من الطائف أنهم سيدخلون فى هذا الدين وهم كارهون ، وأراد الله أن يكرم رسوله ويمتحنهم ، ويريهم قدرته فأسرى بعبده من حرم إلى حرم ، فجاءهم الرسول ـ ﷺ ـ يقص عليهم نبأ إسرائه ، وسمعت قريش مقاله ، فحاصت وأنكرت ، وافتتن أناس صلوا وأسلموا ، وهو صامد قد أنعم الله عليه بفرض الصلاة ، وإمامة الأنبياء ، فما قريش وقد أيده الله والأنبياء والملائكة ؟ عن أبى هريرة قال : « قال رسول الله ـ ﷺ ـ ، لقد رأيتنى فى الحجر وقريش تسألنى عن مسراى ؛ تسألنى عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكربت كرباً ما كربت مثله قط ، فرفعه الله إلىّ ، أنظر إليه ، ما يسألونى عن شيء إلا أنبأتهم به » .

وأحاط بأبى بكر أناس من المشركين يتهكمون به ساخرين .. هل لك إلى صاحبك ؟ انه يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس . قال : أو قد قال ذلك ؟ لقد صدق ، وعادوا يسألونه : أتصدق أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وعاد قبل أن يصبح ؟ قال نعم : انى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك من خبر السماء فى غدوة أو روحة . ثم ذهب إلى رسول الله فطفق يسمع منه ويصدقه ، ويقول أشهد أنك رسول الله . حدث ذلك فى ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الأول قبل الهجرة بسنة . وأغلب الظن أن هذا الحدث كان مفترق الطرق بين محمد وكفار قريش ، فتركهم إلى حين .

بيعة الحرب أو بيعة العقبة الأخيرة

وجاء العام الثالث لأول لقاء مع بنى يثرب ، وقد أخذ بناء الإسلام يرتفع من تقرير العقيدة وتمكينها ، والاتجاه بالعبادة إلى الله الذى من علينا بنعمة الإسلام ، وحين يستقر الإسلام فى حاضرته ستتم أركانه من صوم وزكاة وحج ، وها نحن أولاء بصدد تقرير الجهاد ، وهذا ما تم فى بيعة العقبة الثانية ، وقد كانت فاتحة فى عهد جديد ، أحيطت بكل ما يمكنها من النجاح من السرية والتخطيط ، فالذين خرجوا من يثرب فى موسم الحج ، وكانوا ـ على أشهر الروايات ـ سبعين رجلاً وامرأتين ،

مشى بعضهم إلى بعض قبل الرحيل يتواعدون السير إلى مكة ، وموافاة رسول الله ـ ﷺ ـ ، لم يطلعوا أحداً غير مسلم على أمرهم فساروا فى جموع الحجاج من الأوس والخزرج وكانوا خمسمائة ، وكان المسلمون بينهم يتناقشون حينا أمور دينهم فى حذر ، فلا يفطن بهم أحد ، كالذى حدث من البراء بن معرور ، فانه أبى أن يصلى إلى بيت المقدس ـ وكانت القبلة يومئذ ـ وصلى شطر المسجد الحرام ، وأصحابه يقولون له ، ان نبينا يصلى إلى الشام .

ولما بلغوا مكة أخذ كعب بن مالك والبراء بن معرور يسألان عن رسول الله ـ ﷺ ـ وكانا لا يعرفانه . قال كعب : فلقينا رجلاً من أهل مكة فسألناه عن رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : هل تعرفانه ؟ قلنا لا قال : فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب ؟ قلنا نعم ، قال : إذا دخلتما المسجد فهو الجالس مع العباس ، فدخلنا المسجد فسلمنا ثم جلسنا إليه ، قال رسول الله ـ ﷺ ـ للعباس : هل تعرف هذين يا أبا الفضل ؟ قال : نعم ، هذا البراء بن معرور سيد قومه ، وهذا كعب بن مالك ، قال كعب : فو الله لا أنسى قول نبينا : « الشاعر » ؟ قال العباس : نعم . وقص البراء ما حدث من صلاته نحو الكعبة ، ومخالفة أصحابه اياه . فقال الرسول : قد كنت على قبلة لو صبرت عليها ، ثم صلى نحو الشام .

وأدى هؤلاء السبعون رجلاً والمرأتان أعمال الحج ، والتقوا برسول الله فواعدهم منى وسط أيام التشريق ليلة النفر الأول إذا هدأت الرجل ، وسكن الليل أن يوافوه بالشعب الأيمن بأسفل العقبة . وأمرهم ألا ينبهوا نائماً ، ولا ينتظروا غائباً .. ولم يخرجوا إليه جمعاً ، بل أتوه فرادى يخفون خفة القطا إلى أعشاشها ، فوافوا رسول الله وقد سبقهم إلى مجتمعهم ، معه عمه العباس ، ليس أحد غيره ، وهذا نهاية فى الكتمان ، لم يصحب أبا بكر ولا الحمزة ولا عمر ، فقد يكون فى صحبة العباس ما يبعد عنه هواجس قريش وتجسسها ، فالعباس لا يزال على دين قومه ، ومن جهة أخرى له رغبة فى شهود تلك البيعة ليستوثق لابن أخيه ، وقد ظهر ما نواه أثناء الاجتماع ، فلما تتام المجلس وشاعت السكينة فيه ، كان أول من تكلم العباس ، قال : يا معشر الخزرج - يريد الأوس والخزرج - انكم قد دعوتم محمداً إلى ما دعوتموه إليه ، ومحمد من أعز الناس فى عشيرته ، يمنعه والله منا من كان على قوله ، ومن لم يكن على قوله للحسب والشرف ، وقد أبى محمد الناس كلهم غيركم ، فان كنتم أهل قوة وجلد وبصر بالحرب ، واستقلال بعداوة العرب قاطبة ، ترميكم عن قوس واحدة فارتئوا رأيكم ، وائتمروا بينكم ، ولا تفرقوا إلا عن ملأ منكم واجتماع ، فان أحسن الحديث أصدقه . قالوا : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول

الله ، وخذ لنفسك ، ولربك ما أحببت ، فتكلم رسول الله ، فتلا القرآن ، ورغب فى الإسلام . ثم قال : أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم ، وأبناءكم . عند ذلك أخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : والذى بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا[1] يا رسول الله ، فنحن والله أهل الحرب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر . فاعترض القول ــ والبراء يتكلم ــ أبو الهيثم بن التيهان . فقال يا رسول الله . ان بيننا وبين الناس ــ يعنى اليهود ــ حبالاً[2] ، وإنا قاطعوها فهل عسيت ان فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ، فتبسم رسول الله ثم قال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنتم منى وأنا منكم . أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم . قال العباس بن نضلة الأنصارى : يا معشر الخزرج : هل تدرون على ما تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم . قال : انكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فان كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتل أسلمتموه ، فمن الآن ، فهو والله خزى الدنيا والآخرة ان فعلتم ، وان كنتم ترون أنكم وافون له بما قد دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة . قالوا : فانا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل

---

(١) ثيابنا .　　(٢) عهوداً

الأشراف . فما لنا يا رسول الله ان نحن وفينا ؟ قال : الجنة . قال عاصم بن عمر بن قتادة : والله ما قال العباس ذلك إلا ليشد العقد لرسول الله ـ ﷺ ـ .

ثم أقبلوا على مبايعته واحداً واحداً ، ولما انتهوا من بيعتهم الميمونة قال رسول الله ـ ﷺ ـ : ان موسى أخذ من بنى اسرائيل اثنى عشر نقيباً فلا يجدن أحد منكم فى نفسه أن يؤخذ غيره ، فانما يختار لى جبريل . فلما تخيرهم قال للنقباء : أنتم كفلاء على غيركم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم ، وأنا كفيل على قومى . قالوا : نعم وبايعوه . قال أحدهم : يا رسول الله والذى بعثك بالحق لئن أحببت لنميلن على أهل منى بأسيافنا . فقال الرسول : انا لم نؤمر بذلك . ثم قال : انفضوا إلى رحالكم ، فتفرقوا حسب خطتهم .

وما دار فى هذا الاجتماع يدل على النية الصادقة ، والرغبة الأكيدة فى نصرة دين الله ، والذب عن رسول الله ، ويدل على التفكير السديد ، والخطة المحكمة التى حاطت الاجتماع بعوامل النجاح ، ويدل أخيراً على اتجاه الرسول الكريم ، فهو على عهده لا ينطق عن الهوى ، بل هو يفعل ما يؤمر به من ربه ؛ ولذا لم يجب داعى الحرب ، انما هو يريد الهداية ، وأن يقبل الناس على الإسلام ، ولا يلجأ إلى السيف إلا مضطراً وبأمر من الله .

هل كان فى العقبة جواسيس ؟ ان الرواة يذكرون أن الشيطان صاح بأعلى صوت سمع : يا أهل الأخاشب ، هل لكم فى محمد والصباة معه قد أجمعوا على حربكم ؟.

ويخيل إلى أن الأمر كان حدساً وتخمينا من قريش ، فلا بد أنهم عرفوا صلة ما بين محمد وأهل يثرب ، ولذلك غدت جلة من قريش فى صباح ليلة العقبة إلى شعب الأنصار حتي دخلوه ، فأخذوا يظهرون التودد إليهم ، ويقولون لهم : بلغنا يا معشر الخزرج أنكم لقيتم صاحبنا البارحة وواعدتموه أن تبايعوه على حربنا ، فانبعث المشركون من الخزرج يحلفون لهم بالله ما كان هذا وما علمنا ، وجعل عبد الله بن أبى ـ رأس المنافقين فيما بعد ـ يقول : هذا باطل ، وما كان قومى ليفتاتوا على بمثل هذا ، لو كنت بيثرب ما صنع هذا قومى حتى يؤامرونى ؛ فقد كان يعد نفسه ليكون ملك يثرب .

ورحل القوم ، وتأكدت قريش أن بيعة العقبة حدثت ، وأن بنى قيلة بايعوا محمداً على حربهم ، فانطلقوا يطيرون وراءهم يملأ قلوبهم الحقد والخوف ، ولم يقع فى أيديهم إلا سعد بن عبادة (من النقباء) فأوثقوه ، وأخذوه إلى مكة يضربونه ، ويشدون شعره ـ وكان ذا جمة ـ ولم يخلصه من أيديهم إلا المطعم بن عدى، والحارث بن أمية ؛ ليدٍ له عندهما حين كانا يمران على يثرب متجرين .

وافتقدت الخزرج سعد بن عبادة ، وهمت بالرجوع إلى مكة ، فبينا هم على تلك الحال طلع عليهم سعد فحدثهم بما جرى ، وسارت القافلة إلى يثرب .

المؤامـــرة

كادت مكة تقفر من مسلميها ، وذوى النور فيها ، فقد أراهم الرسول دار هجرتهم ، فرحلوا إلى دار وديار ، واخوان وأنصار ، حملوا الذرارى والأطفال إلى الأوس والخزرج إلى أفق جديد ، ومشرق سعيد ، ومستقر للدعوة لا يحيد ولا يبيد ، ولم يبق فى مكة منهم إلا صاحب الرسالة ، وأبو بكر ، وعلى ، وإلا مفتون محبوس ، أو مريض طليح ، أو ضعيف عن الخروج لا يغدو ولا يروح .

وها قريشاً ما رأت وما سمعت ، فكثر لغطها ، وكثرت حركتها ، أشرافها يتحدثون خائفين أن يخرج محمد من بين أظهرهم ، ابن الخطاب هاجر ، عثمان هاجر ، كل ترك مكة ، إلا القليل . ونادى المنادى اجتماع فى دار الندوة . ودار الندوة بناها قصى بن كلاب سنة ٤٤٠ م كانت تجتمع فيها قريش للتشاور ولا يدخلها إلا من بلغ الأربعين من عمره ، ولم يكن رسول الله ـ ﷺ ـ عضواً فيها إذ جاءته الرسالة فى تلك السن ، ويفهم من سير الحوادث أن الرسول ـ ﷺ ـ لم يعرها التفاتاً

لا قبل الهجرة ولا بعدها . كانت على عهد قصى لا تنكح امرأة ولا رجل من قريش إلا فيها ، وهى مكان المشورة ، ومعقد لواء الحرب ، وما تُدَرَّعُ[1] جارية ـ إذا بلغت أن تدرع من قريش إلا فى تلك الدار يشق عليها فيها درعاً ثم تدرعه ، ثم ينطلق بها إلى أهلها ، وهى من نصيب بنى عبد الدار بعده .

ذلك أنه تطلق على دارالندوة مفهومات عصرية ، فتكون مجلساً نيابياً ، أو مجلساً للشيوخ ، أو مجلساً بلدياً ، أو محكمة عرفية أو مجلس إدارة شركة تجارية أو مجلس حرب يرسم فيها مهام القتال ، وتدبير شئون الجيوش ، وقد نشطت فى حرب محمد نشاطاً مذموماً ، شهدت المؤامرة لقتله ، وتدبير المال بعد غزوة بدر لحربه ، واجتمع فيها المشركون ليشاهدوا رسول الله ـ ﷺ ـ سنة سبع من الهجرة . بعد صلح الحديبية وهو يطوف مع أصحابه ، ولم يكن لها شأن بعد فتح مكة سنة ٨ هـ .

فى دار الندوة هذه اجتمع أشراف قريش للتشاور فى أمر محمد ، ولم يتخلف أحد من أهل الرأى والحجا منهم ، ومن الغريب [2] أن شيخاً كبيراً من أهل نجد مشتمل[3] الصماء فى بت

(١) الطبرى جـ ٢ .
(٢) تقول كتب السيرة انه ابليس .
(٣) ضرب من الثياب يعم الأعضاء .

حضر هذا الاجتماع الخطير ، ومن الغريب أيضاً أنه أدار الجلسة ، ومفهوم أن الدار لبنى عبد الدار أن يكون رئيسها منهم ، ولكن ما حدث يخالف ذلك المفهوم ، وقد أدارها إدارة ماكرة حاقدة ، استمع إليهم يقولون : ان هذا الرجل قد كان من أمره ما كان وما قد رأيتم ، وإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا بمن قد تبعه من غيرنا فأجمعوا فيه رأياً .

قال قائل : احبسوه فى الحديد ، وأغلقوا عليه باباً ، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه حتى يصيبه ما أصابهم . قال الشيخ النجدى : ما هذا لكم برأى ، والله لو حبستموه فخرج أمره من وراء الباب إلى أصحابه ، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم حتى يغلبوكم ، وينتزعوه من بين أيديكم ، ما هذا لكم برأى ، فانظروا غيره .

فقال آخر : نخرجه من بين أظهرنا ، فننفيه من بلدنا ، فإذا خرج عنا ، فو الله ما نبالى إلى أين ذهب ، غاب عنا أذاه ، وفرغنا منه ، فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت (الحرص على وحدة قريش) .

قال الشيخ النجدى : والله ما هذا لكم برأى ، ألم تروا حسن حديثه ، وحلاوة منطقه ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به ، والله لو فعلتم ما أمنت أن يحل على حى من العرب ، فيغلب عليهم

بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم إليكم ،
فيأخذوا أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد . أديروا فيه
رأياً غير هذا .

فقال أبو جهل : والله ان لى فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه
بعد . قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال ، أرى أن نأخذ من كل
قبيلة فتى شاباً جلداً نسيباً وسيطاً فينا ، ثم نعطى كل فتى منهم
سيفاً صارماً ، ثم يعمدون إليه ، فيضربونه ضربة واحدة فيقتلونه
فنستريح ، فانهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل ، فلم يقدر
بنو عبد مناف على حرب قومهم جيمعاً ، ورضوا منا بالعقل
(الدية) .

قال الشيخ النجدى : القول ما قال هذا الرجل . وانتهى
الاجتماع .

والرأى الذى أبداه أبو جهل ليس جديداً ، فقد ردده مراراً ،
وعرض مع البديل على أبى طالب فرفضه مسفهاً قائله : وصياغة
هذا الرأى تدل على تفكير سابق ، فهو يشترط شروطاً كثيرة كل
منها يضمن نجاحه ، ورفع المسئولية عن قبيلة بعينها ، وقد استمع
إليه ممثلو بنى عبد مناف : عقبة وشيبة وأبو سفيان بن حرب

﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ واللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ ﴾ .

فماذا كان ؟ أتى جبريل رسول الله ـ ﷺ ـ فأخبره خبر دار الندوة ، وأمره ألا ينام فى مضجعه تلك الليلة ، وأمر الرسول ﷺ على بن أبى طالب أن ينام فى فراشه ، ويتسجى ببرده الأحمر الحضرمى ، واجتمع شياطين المؤامرة من شباب قريش ليلاً ينظرون من صير[1] الباب يرصدونه وهم عازمون على قتله ، ثم خرج عليهم وهم جلوس أمام داره فأخذ حفنة من تراب نثرها على رءوسهم ، وهو يتلو :

﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ .

سورة يس

---

(١) شق الباب .

(١) مرفوعة رءوسهم بالأغلال .

إلى الهجـــــرة

وأذن الله لرسوله بالهجرة إلى المدينة ، فذهب إلى أبى بكر فى داره ظهراً ، ولم يتعود أبو بكر زيارة رسول الله له فى هذا الوقت ، فاستشرف أبو بكر للوقوف على ما حدث . قال النبى : ان الله قد أذن لى بالخروج إلى المدينة ، فقال أبو بكر : الصحبة الصحبة يا رسول الله ، قال الصحبة يا أبا بكر فبكى . قالت عائشة : فو الله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكى من الفرح حتى رأيت يومئذ أبا بكر يبكى من الفرح .

وأدارا الأمر بينهما فإذا كل شىء يعد بحكمة للرحلة الأثيرة المثيرة ، ومكثا معاً انتظاراً للحظة الحاسمة ، فما جن الليل خرج الرسول وصاحبه من نافذة من ظهر البيت ، فمضيا إلى غار ثور ـ الذى ذكر فى القرآن ـ فدخلاه ، وأكرم الله نبيه فنجاه ، أنبت له شجرة تطل على الغار ، وأمر العنكبوت ، فنسجت نسيجها على مدخله ، وأمر حمامتين وحشيتين فوقعتا على فمه .

وطلبت قريش رسول الله ـ ﷺ ـ أشد طلب ، وبحثت عنه فى كل سبيل ، حتى انتهى الباحثون إلى باب الغار . فقال بعضهم : ان عليه العنكبوت قبل ميلاد محمد ، فرجعوا خائبين . ويظهر أن أبا بكر كان قلقاً على رسالة محمد ان أصابوه ، فقال له : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا . فقال الرسول : « لا تحزن إن الله معنا » .

كيف عاش الرسول وصاحبه فى الغار ، فى ذلك المكان الموحش ؟ هنا نفذت الخطة التى اتفقا عليها ؛ فكان عبد الله بن أبى بكر فى قريش ومعهم يسمع ما يقولونه ويدبرونه ، ثم يأتيهما مساء بما دار فى أندية قريش ، وكان عامر بن فهيرة مولى أبى بكر يرعى فى رعيان أهل مكة ، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبى بكر ، فاحتلبا وذبحا ، فإذا غدا عبد الله بن أبى يكر من عندهما إلى منزله اتبع عامر ابن فهيرة أثره بالغنم ؛ حتى يعفى عليه ، وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما بالطعام بما يصلحهما . وكان التوقيت سليماً . فلما مضت الأيام الثلاثة ، وسكن عنهما الناس ، وهدأ الطلب أتاهما عبد الله بن أريقط الذى استجراه واستأمناه ببعيريهما ليكون ديلهما فى رحلتهما الشاقة ــ وكان كافراً ــ خطة بارعة ، وعين الله حارسة .

قالت عائشة : فهجزناهما أحب جهاز ، وصنعنا لهما سفرة فى جراب ، فقطعت أسماء قطعة من نطاقها فأوكت به الجراب ، وقطعت أخرى فصيرته عصاما لفم القربة ، فبذلك سميت (ذات النطاقين) .

فلما قرب أبو بكر الراحلتين إلى سيد الخلق قرب له أفضلهما ، ثم قال له : اركب فداك أبى وأمى . قال : لا أركب بعيراً ليس لى . قال أبو بكر : فهو لك . قال الرسول : لا ولكن

بثمنه الذى ابتعت به . قال أبو بكر : قد رضيت ، صورة جميلة للرسول وصاحبه ، ولنا منها الأسوة الحسنة .

وسارت القافلة الصغيرة فى رعاية الله ، كانوا أربعة : رسول الله ـ ﷺ ـ ، وأبو بكر ، وعامر بن فهيرة يخدمهما ، وعبد الله بن أريقط دليلهما .

وكان خروجهما من الغار ليلة الاثنين لأربع ليال خلون من شهر ربيع الأول ، وأردف أبو بكر مولاه ابن فهيرة خلفه ، فكانوا فى ظهر الثلاثاء بقديد .فلما راحوا منها عرض لهم سراقة ابن مالك وهو على فرس له ـ وكانت قريش قد جعلت له مائة ناقة ان أتى بمحمد ـ فدعا ـ ﷺ ـ فساخت قوائم فرسه فى الرمال . فقال يا محمد ادع الله أن يطلق فرسى وأرجع عنك وأرد من ورائى ، ففعل ؛ فأُطلق ورجع ، فوجد الناس يلتمسون محمداً . فقال لهم : ارجعوا ، فقد بحثت وجهدت فلم أجده ، وأنتم تعرفون بعدى بالأثر ، فرجعوا عنه . وهذا من صنع الله فقد كان سراقة ٠ ں النهار حرباً عليه وفى آخر سلماً له .

ثم سارت القافلة بعد أن توقفت ، وسلك الدليل بهم طرقاً لا تعرفها قريش ، ومروا على أماكن ـ عينتها كتب السيرة ـ حتى بلغوا أم معبد الخزاعية وكانت امرأة برزة تحتبى وتقعد فى كسر خيمتها ، فنزلوا عندها ، وسألوها تمراً أو لحماً يشترون ، فلم يجدوا ما يريدون ـ وكانت فى جدب وفاقة ـ فقالت : لو

كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى ، فنظر رسول الله - ﷺ -
إلى شاة فى جانب الخيمة . فقال : ما هذه الشاة يا أم معبد .
قالت : هذه شاة خلفها الجهد عن الغنم . فقال : هل بها من
لبن ؟ قالت : هى أجهد من ذلك . قال : أتأذنين أن أحلبها ؟
قالت : نعم ، ان رأيت بها حلبا . فدعا رسول الله - ﷺ -
بالشاة فمسح ضرعها ، وذكر اسم الله تعالى ، وقال : اللهم
بارك فى شاتها ، فدرت واجترت ، ودعا باناء يكفى الرهط ،
فحلب فيه حتى امتلأ ، فسقاها وسقى أصحابه حتى رووا ،
وشرب آخرهم . وقال : ساق القوم آخرهم ، ثم حلب ثانياً
فترك الاناء مملوءاً . ثم ارتحلوا عنها .

عاد أبو معبد إلى زوجه يسوق أعنزاً عجافاً ، فرأى السرور
يقيض على أم معبد ، وبجانبها اناء من اللبن قد ملىء إلى حافته ،
فعجب وسأل : من أين لكم هذا والشاة عازبة ولا حلوبة
عندنا ؟ قالت : لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه
أن طلب الشاة ودعا فدرت واجترت .. قال : والله انى لأراه
صاحب قريش الذى يطلب .. صفيه[1] يا أم معبد . قالت
« رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة ، منبلج الوجه ، حسن الخلق ، لم
تعبه ثجلة ، ولم تزر به صعلة ، وسيم قسيم ، فى عينيه دعج ، وفى

(١) آثر أن يكون وصف الرسول هنا .

أشفاره وطف ، وفى صوته صحل ، أحور أكحل أزج أقرن ، شديد سواد الشعر ، فى عنقه سطع ، وفى لحيته كثافة . إذا صمت فعليه الوقار ، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء ، وكأن منطقه خرزات نظم يتحدون ، حلو المنطق ، فصل لا نزر ولا هذر ، أجهر الناس وأجمله من بعيد ، وأحلاه وأحسنه من قريب ، ربعة لا تنشؤه من طول ، ولا تقتحمه عين من قصر ، غصن بين غصنين ... له رفقاء يحفون به ، إذا قال استمعوا لقوله ، وإذا أمر تبادروا إلى أمره .. » .

وهذا وصف فيه الكثير الذى يتفق مع الأوصاف التى جاءت عن على بن أبى طالب وغيره ممن شاهدوه ، ونعموا بمرآه . وقد عنيت أم معبد بالوجه وما حوى فأطالت وصفه ، من وضاءة ، وقسامة ، ودعج فى عينيه وطول أشفارهما ، وهو أحور أكحل مقرون الحاجبين ، واتفقت مع واصفيه أيضاً فى طول العنق ، وسواد الشعر ، وفى الطول وكثافة اللحية ، وحلاوة المنطق ، والهيبة والوقار غير أنها جاءت بوصف لم أره عند غيرها وهو « فى صورته صحل » تريد بحة فى صوته ، وقد تكون البحة نتيجة مشقة السفر ، وتأثير الغبار والصحراء ، وهى كعادة النساء تنظر إلى الشخص جزءاً جزءاً ولو رأته فى مجالسه لعرفت كثيراً من خلائقه وشمائله التى يجمعها قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وكفاها حسن أحدوثة أنها رأت ووصفت .

وسارت القافلة الصغيرة التى تظللها عناية الله ، وأصبح صوت بمكة يدوى عالياً بين السماء والأرض يسمعه الناس ولا يرون صاحبه ينشد :

جـــزى الله رب النـــــاس خيـــر جزائـــه
رفيقيـــن حـــلا خيمتـى أم معبـــــــــد
همـا نـــزلا بالبـــر ، وارتحـــلا بـــــه
فأفلح من أمسى رفيـــــق محمـــــــــد
ليهـــن بنـــى كعـــب مـــكان فتاتهـــم
ومقعدهـــــا للمؤمـــنين بمرصـــــــد

قال الرواة : ان هذا الصوت هو دل أسرة أبى بكر على وجهة رسول الله ، وأنه يهاجر إلى المدينة . والأبيات مثل أعلى فى النقاء والارتقاء إلى مناط الروح « نزلا بالبر ، وارتحلا بالبر » .

وترامت أخبار هجرة الرسول إلى يثرب ، وكان المهاجرون قد استبطأوا رسول الله فى القدوم عليهم ، فهم يغدون مع الأنصار كل يوم إلى ظهر (حرة العصبة) يتحينون قدومه أول النهار ، فإذا أحرقتهم الشمس رجعوا إلى منازلهم ، فى جوانحهم شوق وفى قلوبهم حنين .

وفى الثانى عشر ربيع الأول جلسوا كما كانوا يجلسون ، فلما أحرقتهم الشمس عادوا إلى بيوتهم مشتاقين متطلعين ، وإذا رجل من اليهود ــ على أطم له ــ يصيح فى صوت يرج الفضاء ، ويهز الأرجاء : « يا بنى قيلة هذا صاحبكم قد جاء » . جملة واحدة فعلت ما لا تفعله خطب البلغاء ، دفعت المهاجرين والأنصار دفعاً ، أخلت المنازل من أهلها ، الرجال والنساء والشبان ، والولائد والصبيان ، وناهيك من فرحة لا توصف وبهجة لا تقدر ، انما هى انطلاقة واحدة ، وصيحة واحدة : رسول الله . رسول الله ، وتغنت الولائد والصبيان يستقبلون محمداً رسول الله ــ ﷺ ــ :

طلع البدر علينا — من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا — ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا — جئت بالأمر المطاع

والبعيران يتهاديان ، ونور من صاحب الرسالة يعم كل مكان .

قال عبد الله بن سلام (يهودى حسن إسلامه) : لما قدم رسول الله ــ ﷺ ــ المدينة انجفل الناس إليه ، فجئت فى الناس لأنظر إليه ، فلما رأيت وجه رسول الله ــ ﷺ ــ إذا وجهه ليس

بوجه كذاب فكان أول ما سمعته يتكلم به : أيها الناس افشوا السلام ، وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام ، وصلوا والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام . فما أجمل ما يدعو إليه من الصلات الإنسانية والدعوة إلى السلام والمحبة .

ثم نزل رسول الله بقباء في بنى عمرو بن عوف ، فمكث عندهم مبشراً ونذيراً يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس . فلما كان يوم الجمعة ركب ناقته القصواء متجهاً إلى داخل المدينة حين متع النهار ، واحتشد المسلمون حوله مدججين بالسلاح مستبشرين بأيام العلا والفلاح ، معهم رسولهم ، وعناية الله ترعاهم ، وسار وساروا معه ، حتى حانت صلاة الجمعة فنزل ، وصلى بهم فى بنى سالم بن عوف أول جمعة أقيمت فى الإسلام ، ويحسن أن نذكر خطبة الجمعة ، ففيها منهج الخطب فيما تلا من الأيام .

قال ـ ﷺ ـ : « الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه ، وأومن به ولا أكفره ، وأعادى من يكفره ، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى والنور والموعظة ، على فترة من الرسل ، وقلة من العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمان ، ودنو من الساعة ، وقرب من الأجل ، من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالاً بعيداً . وأوصيكم

بتقوى الله فانه خير ما أوصى به المسلم أن يحضه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله ؛ فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكراً ، وان تقوى الله لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه عون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة ، ومن يصلح الذى بينه وبين الله من أمره فى السر والعلانية لا ينوى بذلك إلا وجه الله يكن له ذكراً فى عاجل أمره ، وذخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم ، وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً ، ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد ، والذى صدق قوله وأنجز وعده لا خلف لذلك فانه يقول عز وجل: ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ فاتقوا الله فى عاجل أمركم وآجله فى السر والعلانية ، فانه من يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً ، ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً ، وان تقوى الله يوقى مقته ، ويوقى عقوبته ، ويوقى سخطه ، وان تقوى الله يبيض الوجوه ويرضى الرب ، ويرفع الدرجة ، خذوا بحظكم ، ولا تفرطوا فى جنب الله ؛ قد علمكم الله كتابه ونهج لكم سبيله ؛ ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين ، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا أعداءه ، وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وسماكم المسلمين ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حيا عن بينة ، ولا قوة إلا بالله ، فأكثروا ذكر الله ، واعملوا لما بعد

اليوم ، فانه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس ؛ ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه . والله أكبر ، ولا قوة إلا بالله العظيم » .

وتدور الخطبة على تقوى الله وأثر التقوى فى الآجل والعاجل ، وحذر من غضب الله ، وجعل اصلاح ما بينه وبين العبد أولى من العياذ بالعباد ودعاهم إلى الاحسان جزاء وفاقاً على احسان الله إليهم بنعمة الإسلام ، ولم ينههم عن الدنيا ، فقد دعاهم إلى الأخذ بنصيب منها ، ولما كان الايمان هو ما يقصده ويؤكده دعا إليه كثيراً فى الخطبة ، ودعا إلى العلم فى زمن انقطع فيه النظر إليه .

ومنهج الخطبة كما رأينا حمد الله والاستعانة به واستغفاره والصلاة على رسوله الذى جاء على فترة من الرسل ، ثم بعد ذلك موضوع الخطبة « تقوى الله » ثم الاستشهاد بالآيات القرآنية ، وهى معالم تراها اليوم فى خطب الجمعة .

وعباراتها متصلة متماسكة ، أسلوب جديد فى اللغة العربية لم يعهد فيما قبل ، والألفاظ واضحة بعيدة عن ألفاظ الأعراب والمتكلفين .

ولما انتهت الصلاة ركب ناقته إلى مكان أراده الله ليكون مركز اشعاع ، ومنزل وحى ، ودعوة إيمان ، وموطن اصلاح ،

ومنارة حاضرة الإسلام ، وأرخى لها الزمام ، فجعلت لا تمر بدار من دور الأنصار إلا دعاه أهلها للنزول عندهم يقولون : هلم يا رسول إليه ، إلى العدد والعدة والمنعة ، فيقول لهم : خلوا سبيلها فانها مأمورة حتى انتهت إلى موضع لبنى النجار (جعله مسجده) فبركت على بابه ، فلما بركت لم ينزل عنها ، ثم وثبت فسارت غير بعيد ، ورسول الله ـ ﷺ ـ مرخ زمامها ، ثم التفت خلفها ، ثم رجعت إلى مكانها الأول ، فبركت فيه ووضعت جرانها عليه ، والمسلمون ينظرون ويؤمنون .

حلت المشكلة ـ ان صح التعبير ـ وجاء أبو أيوب خالد بن زيد الأنصارى ، فحط رحله ، وأدخله منزله ، قال الرسول : المرء مع رحله ، فأرضي الأنصار بقوله .

عن أنس بن مالك قال : كان موضع مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ لبنى النجار ، وكان فيه نخل وحرث وقبور من قبور الجاهلية . فقال لهم رسول الله ـ ﷺ ـ : ثامنونى به ، فقالوا : لا نبتغى به ثمناً إلا ما عند الله ، فأمر رسول الله ـ ﷺ ـ بالنخل فقطع ، وبالحرث فأفسد ، وبالقبور فنشبت ، ثم تولى هو بنفسه بناء مسجده يعاونه أصحابه من المهاجرين والأنصار .

من هذا المسجد انطلق النور إلى الدنيا فبلغ الصين شرقاً ، والأندلس غرباً ، وما زال هدى وبشرى للمؤمنين .

قال شاعر الأنصار يذكر فضل الله عليهم بنزول النبى بينهم :

ثوى فى قريش بضع عشرة حجة
يذكر لو يلقى صديقاً مواتياً
ويعرض فى أهل المواسم نفسه
فلم ير من يؤوى ولم ير داعياً
فلما أتانا أظهر الله دينه
فأصبح مسروراً بطيبة[1] راضياً
وألفى صديقاً واطمأنت به النوى
وكان له عوناً من الله بادياً
يقص لنا ما قال نوح لقومه
وما قال موسى إذ أجاب المناديا
وأصبح لا يخشى من الناس واحداً
قريباً ، ولا حتى يخشى من الناس نائياً
بذلنا له الأموال من جل مالنا
وأنفسنا عند الوغى والتآسيا
ونعلم أن الله لا شيء غيره
ونعلم أن الله أفضل هادياً

ومن الهجرة بدءوا ، وعليها اعتمد التاريخ فى العالم الإسلامى .

---

(١) اسم المدينه .

الهجــرة فى فلك التاريــخ

ما أرانا نقول إلا معاراً ، أو كلاماً معاداً إذا وقفنا فى الهجرة المحمدية عند سرد الحوادث دون نظر أو تدبر ، فأقل ما يقال فيها : انها حصيلة ثلاثة عشر عاماً قضاها الرسول ومن معه فى معاناة وضيق وشدة ، يحمل رسالته صباح مساء إلى قوم تحجروا فى معتقداتهم وموروثاتهم ، ونالوا من الرسول ما ناوا ، وبالغوا فى التنكيل بمن آمنوا ، وانك لتعجب لقوم يجتمعون لقتل رجل أن يقول ربى الله ، ويتظاهرون على داره ينتظرون مخرجه ليقتلوه ، وهو الذى مناهم بملك الدنيا ، ونعيم الآخرة لو قالوا : « لااله إلا الله » ، وتراه فى غار مظلم موحش وحوله الذئاب تعوى من كل ناحية ، وان صدره وهو يحدث صاحبه :

﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ .

ليسع الأرض ومن عليها وما عليها ، لا تجد منه إلا حدباً عليها ، ورعاية لها ، ان بعض الذين وقفوا بسيوفهم يرجون الخلاص منه كان حفيده (الوليد بن عبد الملك) تزلزل جيوشه نهر اللوآر فى فرنسا باسم دين ذلك الكريم الذى جعل منهم سادة وجعلهم ملوكاً ، الوليد حفيد ذلك الرجل الذى وقف بسيفه مع شباب قريش هو الحكم بن أبى العاصى ، وبجانب ذلك هداهم إلى الله ليسعدوا بجنة عرضها السموات والأرض .

الهجرة أقامت دولة هذه بعض سماتها . فما أن خرج النور من الغار ، واستقر فى بنى قيلة بالمدينة حتى أدت ما أراده الله لهذا الدين الحنيف من انتشار وازدهار ، حتى الذين قاوموه صاروا من أشد الناس دفاعاً عنه ، (آكلة الأكباد) كانت على مشارف الشام مجاهدة تشجع بقولها : واحمداه . عرفت الإنسانية بها الدفاع عن العقيدة والوطن كأقوى ما يكون الدفاع ، ووضعت تعاليم الدين موضع التنفيذ من صلاة وزكاة وصوم وحج ووضحت الصلة بين الحاكم والمحكوم ، وحددت شئون الزواج والطلاق والمواريث ، ونظم المعاملات والتجارة ، وما إلى ذلك مما هو مبسوط فى الكتب ، وأصبح القرآن حياتهم يعنون بجمعه ، ويحافظون على قرائه ، وهو دستورهم ، والحكم بينهم ، عرفوا أنه ذِكْرٌ لهم ، وأس سعادتهم ، وأكرم الله المدينة بها فصارت للرسول مهجره ، بها مسجده الذى تشد إليه الرحال مع البيت الحرام والمسجد الأقصى ، وعلى هذه امتلأت الدنيا بالمساجد .

ان السلف الصالح عرف قدرها ، وأرخ بها ، وحين تشاوروا كيف يؤرخون بدت لهم غراء ناصعة تشير بالعلا ، وترفع عيونهم إلى المجد ، ذلك أن المجد لا يوجد إلا على الطريق الوعر ، فالعقائد لا تؤرخ إلا بالشدة ؛ ليعلم معتنقوها اليوم أن ما فاتهم كان بأنهم آثروا الراحة على التعب والسهل على الصعب ،

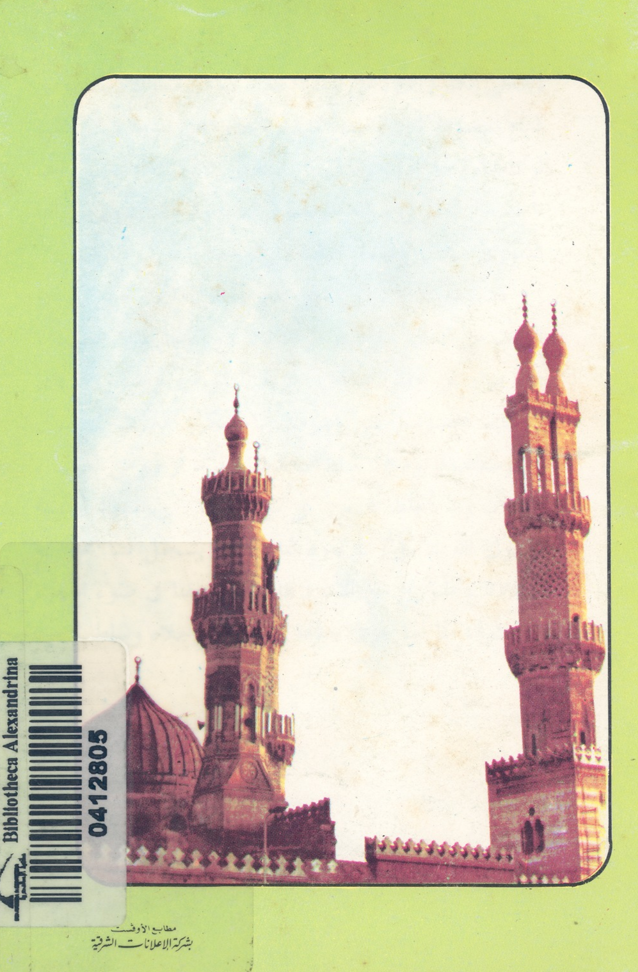
والتغنى بمكارم الآباء على ترك الاقتداء ، وهل معارك رمضان من العام المنصرم[1] إلا وميض منها ، وجذوة من نارها ، ان كتابنا لو تأملناه وجدناه يدعونا فى كل آياته إلى أن نكون الأعلين ، وأنْ نأخذ من العلم ووسائله ما يصون ايماننا وأوطاننا ، ويرضى لنا الشورى مبدأ ، والعمل عبادة ، والوحدة شعاراً ودثاراً .

كان رسولنا أول من أعطى للقومية لواءها ، وجعل كراهة العرب من النفاق ، وحبهم من الايمان ، ولم يجعل ذلك عصبية ، بل جزاء لمن حملوا مشعل الحرية للبشرية ، وأضاءوا الآفاق برحمتهم المحسوسة التى اعترف بها مفكرو الغرب . يقول (غوستاف لوبوم) : لم تعرف البشرية فاتحاً أرحم من العرب ، بالقرآن وما أحاط به من كل شيء علماً ، وبالقدوة الحسنة لرسول الله ـ ﷺ ـ يعود لنا التاريخ يسجل لنا محامدنا وأمجادنا ، فلنؤرخ من الآن : انا بدأنا طريقنا فى ضوء الهجرة ليكون لنا مثل ما جرى بعدها من جهاد وجلاء وسلطان .

السيد حسن قرون

---

(١) يشير إلى معارك العاشر من رمضان .



مطابع الأوفست
بشركة الإعلانات الشرقية